الاقتصاديات الإبداعية وحلول التنمية في العالم العربي

محمد محمود عبد الرحيم
كاتب وباحث اقتصادي

لقد ظهرتْ أنواعٌ جديدة وغيرُ تقليديةٍ من الاقتصاديات قد يقومُ عليها اقتصادُ بلادٍ بأكملها؛ مثلُ (اقتصاد المعرفة واقتصادُ التنمية البشرية)، والاقتصادُ علمٌ لم ينفصلْ أبداً عن تلبية احتياجات الإنسان، والاحتياجُ الإنسانيُّ يبتكرُ حلَّ المشكلات الإنسانية؛ وبمعنىً أدقّ فـ (الحاجةُ أمُّ الاختراع) necessity is the mother of invention، لا يمكنُ وضعُ تعريفٍ مُحدَّدٍ حولَ الاقتصادِ الإبداعيِّ؛ ولكنْ يمكنُ القولُ: أنّ الاقتصادَ الإبداعيّ بالنسبة للأشخاص، أو الدول يعني ببساطة مدى تحويل (الهواية، أو الإبداع الشخصيِّ) إلى تدفُّقٍ نقديٍّ، واستخدامِ الحلول غيرِ التقليدية والإبداعية في حلِّ المشكلات الاقتصادية، وحديثاً – ومع زيادة أهمية استخدام تكنولوجيا المعلومات ومع تقدُّم وسائل الاتصال– بدأتْ تظهرُ الحلولُ الاقتصادية الإبداعيةُ حولَ العالَم؛ فمَثلاً يظهرُ مفهومُ **اقتصاد الفقراء في الهند** فقد قام أحدُ رجال الأعمال في الهند "راتان تاتا" – وهو حاصلٌ على دكتوراه فخرية من مدرسة لندن للاقتصاد–، كما سمَّته مجلَّةُ "فوربز "الأمريكية رجلَ أعمال العام ٢٠٠٥م راتان تاتا مَن قامَ بثورة تغييرٍ شاملة في تكنولوجيا صناعة السيارات على مستوى العالم، بعدما أخذَ على عاتقه تصنيعَ سيارةٍ زهيدة الثمن حتى تكونَ في متناول الجميع .

كانت الفكرةُ – بادِيءَ ذي بَدءٍ– أشبهَ بالحلم عندما شاهدَ "راتان" أسرةً مكوَّنة من أربعة أفراد فوقَ دراجة بُخارية في ليلة ممطرة؛ فقرَّرَ ضرورةَ توفيرِ وسيلة أكثرَ راحةً للتنقُّل يُمكنُ لـ(لأُسَر، والعمَّال، والمزارعينَ) تحمُّل تكاليفها، وبالفعل تمَّ تصنيعُ سيارة تاتا نانو (أرخصَ سيّارة في العالَم)! نعم أرخصُ سيارة في العالم ليس هذا فحسب؛ بل إنّ الهندَ أيضاً قدَّمت للعالَم في إطار ما يمكنُ أن نُسمِّيه (اقتصادَ الأشدَ فقراً)؛ فقد نفَّذَت مشروعاً بتوفير جهاز كمبيوتر محمول مطوَّر – بسعر (٣٥ دولاراً) – يُعتبَرُ الجهازُ أرخصَ كمبيوتر محمول في العالم، ويعملُ بتقنيّة اللمس، وتُعتبَرُ "الهندُ" أوَّل بلد في العالَم تُحاولُ أن تبتكرَ صناعةً متطوِّرة بتكاليفَ أقلَّ لرفع مستوى الناس الأقلّ دَخْلاً،

وتجربةُ بنكِ الفقراءِ (جرامين) في بنجلاديش هو فكرةٌ اقتصادية بديعة غيَّرتْ من الحياةِ (الاقتصادية، والاجتماعية) في بنجلاديش التي انخفضَت فيها نسبةُ الفقرِ انخفاضاً كبيراً فيها، وأصبحَ البنكُ نموذجاً في محاربةِ الفقر في الاقتصادياتِ العالَمية؛ حيث يتعاملُ بقروضٍ صغيرةٍ جداً تقضي على (التعثُّر،) وتصنع حياةً للفقراء– وخُصوصاً في القُرى الصغيرةِ والمناطق الأقلّ تنمية، كما يُعطي البنكُ الأولويةَ للنساءِ في الريف اللاتي يُشكِّلْنَ ٩٦٪ من مُقترضي البنك، ويعملُ على تحسينِ أوضاعِهنَّ، والغريبُ أنّ البنكَ يُحقِّقُ أرباحاً، والمقصودُ هنا: إيجادُ وابتكارُ أفكارٍ اقتصاديةٍ جديدة لجعلِ الفقراء في المجتمع قوَّةً مُنتجةً وليس عِبئاً على الاقتصادِ الوطنيِّ، وتبني مشروعاتٍ قوميةً في هذا الصَّدَد.

وهناكَ دولٌ كثيرة في العالم قامتْ على اقتصادياتٍ غيرِ تقليديةٍ كـ"**الصين**"؛ فقد بدأتْ بصناعاتٍ متناهيةِ الصِّغَرِ وصناعاتٍ صغيرةٍ، ثمّ عملتْ بخططٍ مَدروسة وصولاً إلى (الصناعاتِ الحربية، والسيّارات، والطائرات). وهناك دولٌ يقومُ اقتصادُها على (السياحة، أو الخدمات، أو أيِّ اقتصادٍ غيرِ تقليديٍّ)، وربمّا ظهورِ دولٍ كـ"بنما" وقناتِها المائية؛ حيث أدَّت هذه القناةُ دوراً كبيراً في اقتصادها؛ ممّا أدّى إلى (ظهورِ اقتصادٍ جديد، ومِهَنٍ حُرّةٍ جديدةٍ) حولَ العالم؛ حتّى من خلال الإعلامِ الاجتماعيِّ الذي ساهمَ في (التسويقِ المباشرِ، والوصولِ السريعِ) لأكبرِ قَدْرٍ مُمكنٍ من العُملاءِ في مختلفِ الدول، فـ– على سبيلِ المثالِ لا الحصرِ– ظهرتْ اقتصادياتٌ جديدةٌ من خلالِ وسائلِ الإعلامِ الاجتماعيِّ كـ(تنظيمِ المؤتمرات، والتصويرِ للهُواةِ والمحترفينَ، وكتابةِ المقالاتِ والكُتب، وتحميلِ الكُتب، وتنظيمِ الموارد البشرية) من خلالِ (تسويقِ السِّيَرِ الذاتية، والبحثِ عن العملِ، والتواصُلِ مع المعجبينَ والعُملاءِ بالنسبة للمسوّقِ للمنتجِ)؛ سواءٌ أكان (سِلعةً، أمْ خِدمةً) ويندرجُ في هذا مجالاتُ (الملكيةِ الفكرية، وحقوقِ النَّشْرِ، والنماذجِ، والعلاماتِ التجارية، والتصاميمِ، وبراءاتِ الاختراعِ، والأعمالِ الفنّيَّة، والموسيقى، وبرامجِ الحاسوب، والتصويرِ الضوئي، والأفلامِ، والفيديو، والألعاب، والعمارة، والبحوث، والتطوير، وتصميمِ الملابسِ والمنتجات). وهناك على سبيلِ المثالِ في "الهند" صناعةُ (البرمجيات، وتكنولوجيا المعلوماتِ) التي غزَتْ بها العالَم، وأصبحتْ أحدَ أهمِّ مصادرِ الدخلِ القوميِّ، وفي "أمريكا الجنوبية" صناعةُ الرياضة كـ(تنظيمِ الأحداثِ الرياضية، واحترافِ اللاعبينَ في الدولِ الأوروبية، وعودةِ الأموال على الأندية المحلية)؛ وبالتالي (ضخِّ عمْلةٍ صعبةٍ في السوقِ المحلية، ودفعِ الضرائب والرسوم للدولة) وهذا يُساهِمُ في انتعاشِ اقتصادِ هذه البلاد إذا ما أحسنتْ هذه الدولُ إدارةَ هذه الموارد.

أمّا في "تركيا" مثلاً؛ حيث صناعةُ القمامة، وإعادةِ تدويرِها بصناعاتٍ مفيدة، وهناك العديدُ من الأمثلةِ حولَ العالَم، **وفي "السويد" شركة IKEA** الشركةُ التي يُوجَدُ لديها ٢٠٠٠ مُوزِّعاً في ٦٧ دولةً و١٣٦ فرعاً في ٢٨ دولةً بدأت برغبةٍ جامحةٍ من قِبَلِ بائعٍ كبيرٍ اسمُه "انغفار كامبراد" حوّل حلمَه إلى واقعٍ؛ من خلال التحوُّلِ إلى

صاحبِ أكبرِ شركةِ أثاثٍ عالَمية، وعندما تزورُ متجرَ الشركةِ في أيِّ فرعٍ حولَ العالَم؛ تجدُ نفسَك وكأنَّك في السويدِ البلدِ الأمِّ للشركة، لقد حاولتِ الشركةُ توفيرَ سُبُلِ الراحةِ كافةً للعميلِ؛ من خلالِ (طريقةِ عَرْضِ المنتجات، أو حتّى فتحِ مطعمٍ خاصٍّ في المتجرِ)، ومِن خلالِ المطعمِ يتمُّ تسويقُ أنواعِ الطعامِ السويديِّ؛ فهو ليسَ (متجراً ولا مجرَّدَ شركةٍ)؛ إنّما هي (خيرُ سفيرٍ للاقتصادِ السويديِّ، ونموذجٌ للإبداعِ الاقتصاديِّ) في الشركاتِ في العالَم، والمقصودُ هنا بـ(الإبداعِ)الإبداعُ في (التسويق، وطريقةِ العَرض، ورسالةِ ورؤيةِ الشركة)؛ وليس (مجرّدَ أفكارٍ، أو مستوى جَودةِ منتجاتِ الشركة)؛ فـ(الاقتصادُ الإبداعيُّ اليومَ قطاعٌ رئيسٌ ومُهيمنٌ) في مجالِ (المهنِ، والأعمالِ، والتجارة، والاقتصاد)، وصارَ المقياسَ الأساسَ للتقدُّمِ الاقتصاديِّ، وهو اقتصادٌ يتطوَّرُ مع تطوُّرِ التقنية– وبخاصّة في مجالاتِ (الاتصالِ، والمعلوماتية)، وبالارتقاءِ الإنسانيِّ وتطوُّرِ حاجاته–؛ فـ(الإنسانُ يتطلّعُ بَعدَ تلبيةِ احتياجاته الماديَّةِ إلى الاحتياجاتِ الروحيةِ والفكرية)، وهذه المنتجاتُ بدَورِها تطوُّرُ، وتعظمُ الموارِدَ الماديَّةَ الملموسةَ والاحتياجاتِ المادية أيضا؛ كـ(العمارةِ، واللباسِ، والطعام)، ويمكن ببساطةٍ ملاحظةُ الإبداعِ والخيالِ في تطويرِ وتعظيمِ هذه المرافقِ والاحتياجات.

وكأنّ الأُمَمَ تتقدَّمُ وتزيدُ مواردَها بما تملكُ من (جمالٍ وخيال) هذه الأفكارِ كنموذجٍ للاقتصادِ الإبداعيِّ، ويمكنُ أن تكونَ نقطةَ تحوُّلٍ للعديدِ من الشبابِ في (تكوينِ صناعةٍ إبداعية) لو سُهِّلَتْ عمليةُ (الترحيبِ بالأفكارِ، أو على الأقلِّ تسجيلُها وحمايتُها رقْميّاً) بدلاً من المراجعةِ المملَّة.

وقد تناولَ تقريرُ الاقتصادِ الإبداعيِّ للأمم المتحدةِ للعام ٢٠١٣م[1]– الذي نتجَ عن تعاونٍ مشترَك ما بين منظمةِ اليونسكو وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائيِّ، وبدعمٍ من مجموعةِ أبوظبي للثقافةِ والفنون.

وفي مِصرَ

وقد ذكرَ التقريرُ أنّ التجارةَ العالميةَ للسلعِ والخدماتِ الإبداعيةِ رقْماً قياسيّاً بلغ ٦٢٤ مليار دولار أميركيّ في عام ٢٠١١م، وازدادتْ أكثرَ من الضِّعفِ بين (عام ٢٠٠٢ وعام ٢٠١١)م. وفي الوقتِ عينه، يتمتَّعُ الإبداعُ والثقافةُ أيضا بقيمةٍ كُبرى غيرِ نقديّةٍ تُسهِمُ في (التنميةِ الاجتماعيةِ الشاملة، والحوارِ، والتفاهُمِ بين الشعوب).

وفي مِصرَ كنموذجٍ من العالَمِ العربيِّ يوجدُ العديدُ من الأفكارِ لـ(تنمية، وإنعاشِ) الاقتصادِ الوطنيِّ؛ كـ(الاستفادةِ من أموالِ الوقف، وإعدادِه تدوير المخلَّفات، وتحليةِ المياه لزراعةِ الصحراء، والسياحةِ العلاجيّة، وخدماتِ قناةِ السويس).

1 رابط التقرير كاملا

الخلاصةُ: إنّ الاقتصادَ الوطنيَّ يحتاجُ إلى حُلولٍ(إبداعيّةٍ، وجَذريّةٍ) للخروجِ من الأزمةِ الحاليةِ، ويجبُ الاستفادةُ من (الاقتصادِ الإبداعيّ والخروجُ بأفكارٍ غيرِ تقليديَّةٍ) للخروجِ من أزمةِ الاقتصادِ المصريِّ؛ من أجلِ مُستقبَلٍ أفضلَ. وفي النهايةِ لابُدَّ أن ينعكسَ النجاحُ الاقتصاديُّ على الحياةِ الاجتماعيةِ؛ بل وعلى الحياةِ السياسيةِ للدولِ.
وكما شاهدْنا فإنّ (المشاكلَ الاقتصاديةَ، وقلّةَ الموارد) تكونُ (دافعاً قويّاً، ومُحفِّزاً مُهمَّاً) للخروجِ بحُلولٍ اقتصاديةٍ إبداعيةٍ، ويمكنُ الاستفادةُ من نماذجِها العالَميةِ للتطبيقِ في الدولِ الأقلِّ نُموّاً في عالَمنا العربيِّ؛ وخاصَّة "فلسطين الحبيبةَ" المحتلَّةُ. اللهُمَّ ألهِمْنا رُشدَنا فيما يَنفعُنا ويَرفعُنا. اللهُمّ آمين.